الفصل الثاني
مخـاطر التبنّـي

ـ أولاً:

إنَّ التبنّي على المنهج الجاهلي يؤدّي إلى اختلاط الأنساب ، فيدخل شخص غريب في أسرة ، فيصير ربّ هـٰذه الأسرة أباً له ، وزوجة المُتبنّي أماً له ، وبنات هـٰذه الأسرة أخواته ، وبطبيعة الحال فسوف ينشأ هـٰذا الغلام بينهم ، وسوف يطّلع على عوراتهم ، ولن تشعر النساء في هـٰذه الأسرة بحرج منه باعتباره أخاً للبنات وابناً لزوجة المُتبنّي ، وبالتالي سوف يُعاملونه بتلقائية كاملة ، فستقوم الأم بضمّه وبتقبيله والحنوّ عليه ولن تتحرّج إذا ظهر منها الكثير من مواطن عورتها ، وسوف يُخالط البنات مخالطة كاملة تامَّة ، ولن يتحرّجوا في إظهار بعض عوراتهم أمامه نتيجة المعاشرة الطبيعية في الأسرة ، ولا سيّما في الأسر التي لا تُطبّق نظام القيم الإسلامية ، وينسى الكثيرون أنَّ مشاعر هـٰذا الغلام تجاه هـٰذه الفتيات أو تجاه أمّه بالتبنّي ليست مشاعر الابن تجاه أمّه الحقيقية ، وليست مشاعر الأخ تجاه أخواته البنات الحقيقيات ، ولا سيّما في هـٰذا الزمان الفاسد الذي انتشرت فيه حالات زنى المحارم فترى أنَّ الأخ الحقيقي يزني بأخته الحقيقية ، فما بالك في حالة التبنّي والانتساب بالاسم وليس بالنسب والعصب والدم؟! .

وفي هـٰذه الحالة سيقع الكثير من المصائب ، وسينظر هـٰذا الغلام إلى زوجة المُتبنّي كما ينظر أي غلام مراهق إلى امرأة حسناء يشتهيها ، ولا سيّما إذا تمّ تبنّيه في سنّ التمييز ، وربما اشتهى إحدى أخواته البنات واشتهته ، وربما وقعت الفاحشة العظمى ، وقد أثبتت الدراسات أنّ ثلث أوروبة تُعاني حالياً من زنى المحارم.

ولا تنسَ نظرة الأب المُتبنّي إذا تبنّى فتاة ورآها تكبر وتنضج وتظهر مفاتنها دون تحرّج؛ لأنها تتعامل مع أبيها ، ولكن هـٰذا الأب يعلم علم اليقين أنها ليست ابنته الحقيقية ، وبالتالي لن يستطيع أمام هـٰذه الرؤى وأمام هـٰذه المفاتن أن يتجرّد من غريزته الطبيعية التي خلقها الله عزّ وجلّ في كيانه ، فكيف إذا ضعفت نفسه وقام بالاعتداء على ابنته بالتبنّي ، وما هو موقف تلك الفتاة عندما ترى أباها يُضاجعها مضاجعة الحيوانات؟!.

ولا سيّما في زمن كَثُرَ فيه اعتداء الآباء على بناتهم النَّسَبيَّات فما بالك ببناتهم بالتبنّي؟!.

وانتشرت لدينا قصة في دمشق أنَّ امرأة متزوّجة دخلت على زوجها فرأته في وضعيّة غير أخلاقية مع إحدى بناتها ، وكان لهـذه المرأة ثلاث بنات ، فلم تتمالك نفسها وقامت بقتله وحسناً ما فعلت ، وبعد التحقيق ظهر أنَّ هـٰذا الأب الفاجر يجعل لكلّ فتاة من فتياته ليلة معه يُضاجعها فيها ، وأنّ البنات يخشينَ من البوح بهـذا السرّ وهـٰذه الفضيحة؛ خشية على أنفسهنّ من تهديد هـٰذا الأب الفاجر ـ إذا صحّت تسميته بالأب أصلاً ـ!!.

وكم وكم انتشرت هـٰذه القصص في مجتمعاتنا الإسلامية بعد حملة التغريب والحرب الإعلانية الفضائية التي تُسلّط على أمّتنا الإسلامية من قِبَلِ أعدائها.

وأعود فأقول: هـٰذا الأب الذي اعتدى على بناته الثلاث إنما هو أب نَسَبيٌّ دمويّ عصبيّ حقيقيّ ، فما بالك عندما تكون القضية قضية تبنّي؟! فلا عاطفة أبويّة تمنع ولا رابطة دمويّة تحول دون ذلك ، ولا آصر فطري طبيعي يدخل بينهما؛ فالأب لا يرغب ببناته رغبة الرجل بالمرأة غريزياً!

ومن هـٰذه القصص التي انتشرت أنَّ رجلاً لا يتقيّد بأحكام الشريعة الإسلامية ، جاء بفيلم إباحي إلى داره ليُشاهده مع زوجته ـ نعم لا شكّ أنه رجل خنزير لا يأبه أن تُشاهد زوجته رجالاً يُضاجعون نساءً أمام عينيه ـ وفي إحدى الليالي استيقظ على أصوات من التأوّهات فخرج إلى غرفة الجلوس فوجد ابنه

يُضاجع ابنته ، وكان السبب في ذلك أن انسلّ ابنه لخزانة الوالدين فأخرج منها هـٰذا الشريط وشاهده مع أخته ، وبطبيعة الحال استَعَرَت الغريزة في كيانهما وكان ما كان؛ وقد استوقف الأب أحد علماء دمشق الأفاضل وهو يسير في الطريق فقال له وعيناه تذرفان دمعاً: لقد وقع الأخ بأخته والمصيبة أنّ الأخت قد حملت من أخيها ، فما هو العمل الآن؟

أقول هـٰذا الكلام في حالات العلاقات النَّسَبيَّة العادية ، فما بالك في علاقات التبنّي؟! هـٰذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا افترضنا أنَّ الأمور سارت على أفضل ما يكون ، وفعلاً اتّخذ هـٰذا المُتبنّي هـٰذه الفتاة بنتاً حقيقية له ، واتّخذها إخوانها أختاً حقيقية لهم ، ثم تعلّقت هـٰذه الفتاة بأحد أقارب هـٰذه الأسرة وهو من المحارم وتعلّق بها ، فلا يمكن الزواج بينهما تبعاً للنظام الجاهلي للعلاقة النَّسَبيَّة بينهما ، مع العلم أنه لا علاقة نسبية حقيقية بينهما ، فهنا تقييد لما أباحه الله عزّ وجلّ أيضاً.

ـ ثانياً:

قد تحدث نتيجة التبنّي صراعات أسرية هدّامة ، قد تؤدّي إلى الحقد والكراهية ، وتؤدّي إلى بعض الجرائم في غالب الأحيان ، ولا سيّما عندما يكون الأب المُتبنّي ثرياً ، ويكون له أبناء حقيقيّون وابناً بالتبنّي ، فهم يتصارعون على التركة والميراث وعلى أعطيات الأب ، ويَرونَ أنَّ هـٰذا المُتبنّى لا حقّ له في مال أبيهم ، وبذلك تنشأ الفتن في العلاقات الاجتماعية وتتخبّط الناس فيما بينها.

ـ ثالثاً:

في حال كون هـٰذا المُتبنّى يعلم أباه الحقيقي ، وقد تبرّأ من أبيه الحقيقي والتحق برجل آخر ، فيكون قد ارتكب إثماً عظيماً وكبيرة من الكبائر ، ويكون ولداً جاحداً للجميل ، ويتوقّع من ذلك الشخص الذي تنكّر لأبيه بالأصل والدم والنسب أن يجحد خالقه أيضاً ، فقد قطع مراحل وأشواطاً على طريق الجحود والنُّكران ، وذلك يُعدُّ من الحِكَم الخفيّة لتحريم التبنّي.

ـ رابعاً: ظلم المُتبنّى:

لقد وردت كثير من القصص والحالات بأنّ هناك بعض الناس يتبنّون ولداً أو فتاةً ، وبعد أن تُصبح هـٰذه الفتاة داخل بيوتهم يُرزقون بولد من صُلبِهم فيقومون بالتمييز الواضح والفاضح بين الاثنين ، فيُحوّلون المُتبنّى إلى مجرم فتّاك يمتلئ قلبه ويفيض صدره بملايين العقد النفسيّة والمشاكل العصبيّة ، هـٰذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى قد يُخفون عليه حقيقة كونه مُتبنّى ، ثم يعلم بوسيلة أو بأخرى أو بمصارحتهم له بعد ذلك فيقع في صدمة نفسية وعصبية خطيرة تشقّ في نفسه شرخاً لا يندمل أبداً ، ونرى أنّ الكثير من المجرمين والساديّين والذين يُعانون من عقد نفسية خطيرة يقومون بتبنّي الأبناء ، فمنهم من يعذبّهم ومنهم من يضربهم ، ومنهم من يغتصبهم ومنهم من يمتهن كرامتهم ، ومنهم من يحمّلهم أشغالاً فوق طاقتهم كأنهم قد اشتروا رقيقاً من سوق العبيد! مع العلم أنّ الرقيق لا يُعامل إلاّ بالإحسان كما نصّت عليه الشريعة الإسلامية.

وقد عرضت إحدى الفضائيات مشاكل في إحدى الدول العربية تُعبّر عن ذلك الواقع الاجتماعي ، فقد تبنّت امرأة طفلة ثم نُقِلَت هـٰذه الطفلة إلى المشفى لبتر يديها ، وبعد أن تمّ الكشف على جسدها تبيّن أنّ المرأة التي قامت بتبنّيها تُعاقبها بعقوبات ساديّة ، فتكوي جسدها بأسياخ النار وتُطفئ أعقاب السجائر في وجهها وجبهتها وعيونها ، ونتيجة الكي بالنار والضرب الشديد والمؤلم على يديها اضطرّ الأطباء إلى بترهما بعد أن بلغا حالة من الخطورة لا يُمكن معالجتهما إلاّ بالقطع[1].

عدا عن القصص الكثيرة التي تتداولها الأوساط من تبنّي البنات لتسخيرهن في أعمال البغاء أو لسرقة أعضائهن ، أو لممارسة الشذوذ الجنسي ، والصحف مليئة بهـٰذه القصص ، وما عليك إلاّ أن تعود إلى هـٰذه الملفّات وتقرأها.

---

(١) تلفزيون المستقبل: برنامج سيرة وانفتحت ـ بتاريخ ٩/ ١٠/ ٢٠٠١ م.

ـ خامساً:

وكما أنَّ العصابات الإجرامية الكبرى تقوم بتمثيل دور الشفقة والرحمة ، فيتبنّى بعض أعضائها بعض الفتيات والغلمان ويُسخّرونهم لأغراضهم الإجرامية ، فيُدرّبونهم على الجريمة والسرقة واللصوصيّة والبغاء والإتجار بالمخدّرات والقتل وما إلى ذلك ، والكلام الذي تقدّم في الاستنساخ وخطورته يُقال في هٰذا الصدد فلا حاجة للتكرار ، مع العلم أنّ الألمان المتحضّرين والفرنسيين الذين يتّصفون بالرقي والشعوب الإسكندنافيّة يتعمّدون السفر إلى شرقي آسيا؛ لأنهم يجدون هنالك ممارسة الجنس مُباحة ورخيصة مع الأطفال!.

وكم بثّت الفضائيات صوراً من ذلك ، فيقومون بممارسة الجنس مع طفلة عمرها أربع سنوات ، ويطلبون من هؤلاء الفتيات وأولئك الغلمان الصغار أن يقوموا بأعمال مقززة تخجل الخنازير من القيام بها ، فعليك أن تنظر إلى سموّ الحضارات الأوربية وإلى القيم الأخلاقية الحضارية التي يتمتّع بها هؤلاء الأوربيون المتقدّمون؟!.

ويجب أن نخصَّ كل غراب ينعق في أوساط أمتنا الإسلامية للّحاق بركب الحضارة الأوربية أن يلحق بإحدى حظائر الخنازير فيأكل ويرتع ويُضاجع معهم كما يشاء ، فإنها نموذج واضح وصريح لكثير من السلبيات التي تعيش فيها الأمم الغربية.

وفي نهاية المطاف لا نستطيع أن نقول: إنّ كلّ حالات التبنّي تؤدّي إلى هٰذه المخاطر ، ولكن هٰذه المخاطر كثيرة الورود والوقوع ، ونتيجة انتشار الفساد في المجتمعات عامة الإسلامية وغير الإسلامية وتدنّي الحس الأخلاقي وتدنّي الرادع الديني ، وضياع القيم الفاضلة أصبح الفساد هو الغالب ، وأصبح الخطر هو الاحتمال الرائد ، ونتيجة لذلك فالتبنّي يُعدُّ من الأمور الخطيرة ، وحكمة الله عزّ وجلّ فوق كل شيء وفوق كل اعتبار فهو أحكم الحاكمين ، فقد حرّم الله عزّ وجل التبنّي وأباح الكفالة ، والفرق واضح بين التبنّي والكفالة ، فعندما تأتي بولد صغير وتجعله في أسرتك تكفله وتعامله معاملة كريمة ولكنك

تعلم أنه غريب عنك ، وتعلم أنه ليس ابنك ، فتبقى حينذاك الحواجز الشرعية قائمة ، وبقاء الحواجز الشرعية قائمة من شأنه أن يحقق الأمن من جميع المخاطر ، فتتعامل زوجة المُتبنّي مع هـٰذا الغلام على أنه غلام غريب ، فلا تتكشّف أمامه التكشّف العادي الذي تتكشّفه أمام أبنائها ، وتراعي الأخوات البنات أمامه العفّة والحشمة باعتباره غريباً لا أخاً نسبياً ، وبهـٰذه الحالة نتجنّب الكثير من الثغرات التي يقع فيها نظام التبنّي الجاهلي سواءٌ كان قديماً أو حديثاً ، وإليك الآن قصة التبنّي في الإسلام :

كان رسول الله ﷺ في مكّة المكرّمة متزوّجاً من خديجة أمّ المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها ، وقد كان لخديجة رضي الله عنها عبد يُدعى بـ (زيد) ، وكان هـٰذا الغلام ليس رقيقاً بالأصل ، بل إنَّ عصابة من العصابات العربية اقتحمت على قبيلته وقامت بخطفه ثم باعته في أسواق مكّة ، فدارت به الأيام ليصل إلى بيت رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من فضل الله عليه وشرفاً عظيماً وكبيراً له ، وكان رسول الله ﷺ يُعامله أجود ما تكون المعاملة ، وكيف لا وقد قال عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

فما قال له يوماً عن شيء لم يفعله لِمَ لم تفعله ، ولم يقل له يوماً عن شيء فعله لِمَ فعلته ، وجاء ركب من قبيلة بني كلب إلى مكّة المكرّمة وشاهد (زيد) ، وكان زيد ينتسب إلى هـٰذه القبيلة ، فأسرع الركب إلى أبيه (حارثة) وأخبره بأنّ ابنه زيداً في مكّة وعند رجل صالح يُدعى (محمد بن عبد الله) ﷺ ، فقدِم الأب إلى مكّة المكرّمة وسأل إلى أن وصل إلى بيت رسول الله ﷺ وقال له : إنّ ابني زيداً هـٰذا عندك خُذ ما شئت من الأموال وردّه إليّ ، وكان عليه الصلاة والسلام قد تعلّق قلبه بزيد ، وتعلّق زيد برسول الله ﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام لحارثة : خيّر الغلام فإن اختارك فخذه دون درهم واحد ولا دينار ، وإن اختارني يمكث معي ، فدُعِيَ الغلام وخُيّر بين أبيه وبين رسول الله ﷺ فقال : والله ما كنت لأختار عن محمد ﷺ بديلاً ، فَسُرّ ﷺ لذلك الإخلاص والحب من الغلام ، وتلألأ وجهه فرحاً وأمسك الغلام من يده وذهب إلى الكعبة

المشرّفة وجمع الناس وأشهدهم وقال لهم: إني أشهدُكم أنّ زيداً قد أُعتِقَ وإني أشهِدُكم أنه ابني وأنا أبوه أرِثُه ويرثُني.

وكانت هٰذه القصّة لحكمة إلٰهيّة عظيمة تتّضح معالمها بعد سنوات[1].

وبعد أن هاجر ﷺ إلى المدينة المنوّرة، وكان حريصاً كعادته على زيد بن حارثة الذي يُكنّى آنذاك بـ(زيد بن محمّد) رغب في تزويجه وخطب له (زينب بنت جحش) وهي ابنة عمّة رسول الله ﷺ، وهي قرشيّة منسوبة ذات حسب ونسب، وكان زيد عبداً أو ما يساوي ذلك، فأبت زينب أن تتزوّج زيـداً استعلاءً عليه، ولكن أصرّ رسول الله ﷺ على ذلك ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦][2].

ونتيجة استعلاء زينب رضي الله عنها عن زيد رضي الله عنه، وعدم صبره على هٰذا الاستعلاء وقعت البغضاء فيما بينهما، وسأذكر إن شاء الله تعالى الآن الآيات التي تحدّثت عن تحريم التبنّي في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ ـ ٥].

وبدأ الله عزّ وجل بإثبات حقيقة مادية لا تحتمل نقاشاً ولا جدالاً، وهي أنه لا يُمكن أن يكون للرجل قلبين في جوفه، ثمّ ثنّى عليها حقيقتين ثانيتين وهما: أنه لا يُمكن أن تكون الزوجة أمّاً ولا يُمكن أن يكون الولد المُتبنّى ابناً حقيقياً نسبياً صُلبياً، وإنّ ذلك العطف من شأنه التأكيد والتمثيل وتعزيز البلاغة والوقع في النفوس والعقول.

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص: ١٤٠ وما بعدها.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ج٣ ـ ص ٤٩٠.

ويُروى أنَّ رجلاً من قريش كان شديد الذكاء شديد الحكمة ، وكانت قريش تدعوه بذي القلبين ، وفي موقعة بدر وعندما انهزم المشركون عاد هٰذا الرجل فلقيَهُ أبو سفيان فقال له: ما فُعِلَ بكم؟

فقال: منّا قتيل ومنّا فار ، فقال له أبو سفيان: وماذا تصنع في نفسك؟.

فقال: وما أصنع في نفسي؟ لا أصنع في نفسي شيئاً ، فقال له: ولِمَ أرى نعلاً في قدمك ونعلاً في يدك؟.

فأجابه: والله إني لأظنهما كليهما في قَدَمَي ، فقال له: أنت الذي تُدعى بذي القلبين؟!.

وكان ذلك إثباتاً عملياً لأنه لا يوجد مخلوق ذا قلبين في جوفه ، ويُنسب العقل والحكمة إلى القلب عادة ، فكما أنّ حقيقة وجود قلبين في جوف المرء غير حقيقي وبعيد عن الصحّة والمنطق ، فكذلك أن يقول الرجل لزوجته عندما يغضب عليها. أنت عليّ كظهر أمّي ، ويقصد بذلك أنه يُحرّمها عليه حرمة أبدية ، فكما أنه يحرم عليه أن يقرب أمّه جنسياً فقد حرمت عليه زوجته ، وهٰذا بطبيعة الحال أمر مستحيل؛ لأنّ الأمّ لا تكون زوجة والزوجة لا تكون أمّاً قط ، وكان ذلك يُعدُّ طلاقاً عند العرب وسمّاه الإسلام (ظهاراً) ، ورتّب عليه أنواعاً من العقوبات ، فكما أنه لا يُمكن أن تكون الأمّ زوجة والزوجة أمّاً ولا يُمكن أن يكون للرجل قلبين في جوفه ، فإنه لا يُمكن أيضاً أن يكون الولد المُتبنّى أي (الدَّعيّ) ابناً حقيقياً ، وهٰذه الآية تُعدُّ تحريماً للتبنّي[1].

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥] يُعدُّ إلغاءً لحالة التبنّي ونسبة الدَّعيّ إلى من هو ليس بأبٍ حقيقي له.

ـ عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه أنه كان يقول: ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلاّ زيد بن محمّد حتّى نزل في القرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[2].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ج٣ـ ص: ٦١٥.

(٢) صحيح مسلم: ج٤ ـ برقم ٢٤٢٥.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

والخطاب في قوله تعالى لرسول الله ﷺ يقول له: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

أما نعمة الله على زيد فهي نعمة الإيمان، ونعمة دخوله في الإسلام، ونعمة ملاصقته لرسول الله ﷺ قبل البعثة وبعد البعثة، فكانت هـٰذه العصابة من العرب التي قامت باختطاف زيد ثمّ باعته في سوق مكّة خيراً كبيراً وفضلاً محضاً من الله عز وجل.

وأما إنعام رسول الله ﷺ فكان بأن أعتقه ونسبه إليه وتبنّاه وقال: إنّ زيداً ابني يرثني وأرثه، وكانت معاملة رسول الله ﷺ لزيد معاملة راقية جداً، كما هو شأنه عليه الصلاة والسلام مع الجميع، وكما تقدّم ـ فما قال له يوماً لِمَ لَمْ تفعل كـذا أو لِمَ فعلت كـذا؟ وكان من منّته عليه أن زوّجه زينب بنت جحش وهي من أشرف أنساب العرب وأكرمهم بيتاً، مع العلم بأنّ زيداً كان عبداً وقد أُعتِق، وكان زيد لا يُدعى إلاّ حِبَّ رسول الله ﷺ من شدّة حبّ المصطفى له، وكان ابنه أسامة يُسمّى الحبّ ابن الحبّ.

وقالت عائشة رضي الله عنها: (ما بعث رسول الله ﷺ زيداً في سريّة إلاّ أمّره عليهم)[1].

فكان زيد رضي الله عنه من أشد المُقرّبين إلى رسول الله ﷺ، ونتيجة زواج زيد من زينب حصلت البغضاء بينهما ـ كما تقدّم ـ استعلاءً من زينب رضي الله عنها على زيد رضي الله عنه؛ لكونها منسوبة ولكونه مولىً، ولقضاء أبرمه الله عزّ وجلّ في علم غيبه، فكان زيد يشكو أمرها إلى رسول الله ﷺ ويستشيره في تطليقها، وكان عليه الصلاة والسلام يُجيبه قائلاً: اتّقِ الله وأمسك عليك

---

(١) المستدرك على الصحيحين للنيسابوري: ج٣ـ برقم ٤٩٦٢.

زوجك ، ثمّ يُكرّر زيد الشكوى ثمّ يكرّر ﷺ قوله: اتّقِ الله وأمسك عليك زوجك ، فعاتب الله رسوله ﷺ فجاء في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ومعنى ذلك أنّ الله عزّ وجلّ قد أعلم رسول الله ﷺ بأنّ زينب سوف تكون إحدى زوجاته ، وكان ﷺ يخجل من هـٰذه الحقيقة ويُحاول إخفاءها ، وأما سبب الخجل والحرج فواضح باعتبار أنّ العرب كانت تعتبر المُتبنّى ابناً حقيقياً ، وترى أنّ زوجته مُحرّمة على متبنّيه حرمة أبدية ، وكانت هـٰذه القاعدة سائدة ومسيطرة ومتأصّلة في النفوس تأصّلاً عميقاً يصعب استئصالها ، فأراد الله عزّ وجلّ أن يستأصلها رحمة بالمؤمنين ، واقتضت الحكمة الإلهيّة أن يستأصلها بالنصّ القرآني وبفعل رسول الله ﷺ أيضاً؛ لأنه لا يخفى على المتخصّصين بعلم التربية وعلم النفس مدى تأثير فعل القائد على الجماهير ، فالكلام شيء والتطبيق العملي شيء آخر ، ومن أمثلة ذلك:

ـ ما جرى في عام الحديبية حين أمر رسول الله ﷺ الصحابة أن يحلقوا فقال لهم: احلقوا وقصّروا ، فلم يردّ عليه أحد ، فكرّرها ثانية فلم يقم أحد ، فكرّرها ثالثة فلم يقم أحد ، فدخل رسول الله ﷺ على أمّ سلمة وقال لها: يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، هلك الناس؛ آمرهم أن يحلقوا فلا يحلقوا ، فقالت: يا رسول الله ، أأشير عليك؟ قال: نعم ، قالت: اخرج عليهم ولا تكلّم منهم أحداً ثمّ ادعُ حلاّقك فاحلق ، فخرج رسول الله ﷺ باعتباره قائداً ، فلم يُكلّم أحداً ودعا حلاّقه فأمره فحلق له ، فقام المؤمنون يحلق بعضهم لبعض.

فذلك تأثير كبير وبالغ في علم التربية وعلم النفس ، ولقد كان أحد كبار علمائنا عندما يدعو الناس للتبرّع والتصدّق على المنبر يُخرج مبلغاً من جيبه ويقول: وهـٰذه عني وأنا أوّل المتبرّعين ، ودائماً كانت النتائج مبشّرة والصدقات كثيرة ، فحكمة الله عزّ وجلّ اقتضت أن يُزوّج رسول الله ﷺ من زوجة دَعِيّه زيد بن حارثة كي تُستأصل هـٰذه القاعدة من النفوس تماماً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فإنه عتب على رسول الله ﷺ كيف يخجل من الناس وقد أمره الله عز وجل بأن يفعل ذلك؟ وكان عليه الصلاة والسلام أشدّ حياء من العذراء في خدرها.

عن أنس رضي الله عنه: (لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: فاذكرها عليّ، فانطلق زيد حتّى أتاها وهي تُخمّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظُمَت في صدري حتّى ما أستطيع أن أنظر إليها أنَّ رسول الله ﷺ ذكرها، فولّيتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتّى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، قال: فقال: ولقد رأيتنا أنّ رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتدّ النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتّبعته)[1].

وكانت زينب رضي الله عنها تتباهى على سائر نساء رسول الله ﷺ بأنّ الله قد زوّجها لنبيّه دون وليّ، أما بقية النساء فقد زوّجهنَّ أولياؤهنَّ، وكانت رضي الله عنها تقول لرسول الله ﷺ: لي عليك ثلاثة، وتعني أنها تستحقّ أن تُدلّل منه لثلاثة أمور، فكان يضحك ويقول لها: أما الأولى؟ فكانت تُجيبه: أنني ابنة عمّتك، والثانية؟ أنّ الله زوّجني إيّاك دون وليّ ولا شهود، والثالثة؟ أنّ رسولك إليّ كان جبريل وليس زيداً، رضي الله عنهم أجمعين[2].

وفي نهاية المطاف يتبيّن لك أنّ الله عزّ وجلّ شاء أن تُنزَعَ هـٰذه العادة الجاهلية من جزيرة العرب عن طريق النصّ القرآني والتطبيق العملي الذي أمر به رسول الله ﷺ، ولا يُقال كما يدّعي المستشرقون السفلة بأنه عليه الصلاة والسلام كان يُريدها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يتزوّجها بدايةً مع رغبتها رضي الله عنها ورغبة أخيها بهـذا الزواج المبارك، ومن الثابت أنها أي (أم المؤمنين زينب وأخاها) تلكّؤوا بقبول زواج زيد؛ لأنهم يتطلّعون إلى النبي ﷺ

---

(١) صحيح مسلم: ج٢ ـ برقم ١٤٢٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ج٣ ص: ٦٤٧.

ويتأمّلونه زوجاً ، فلو كان عليه السلام يريدها لتزوّجها منذ البداية ، ولم يزوّجها لزيد ، ولكن ما عساك أن تصنع مع الحاقدين الّذين طمس حقدهم على عقولهم وأبصارهم وبصائرهم؟! قاتلهم الله أنّى يؤفكون ، وشرّف الله رسوله ﷺ عمّا يقولون ، فإنّ غبار قدميه ﷺ يُشرّف أهل الأرض ، فأفضل الصلاة وأتمّ السلام عليك يا سيدي يا رسول الله .

* * *